المادة التصويرية

فى شعر أبى ريشة

١

من أهم ما يميز الشعر فى كل اللغات مادته التصويرية ، فالشعراء لا يعبرون عن الحقائق كما هى ، بل يعرضونها فى شكل أشباح وأطياف ، وتؤثر فينا هذه الأشباح والأطياف بأكثر مما تؤثر فينا الحقائق نفسها ، إذ نراها مجسمة تحت أعيننا ، فيزداد إحساسنا بها ، ويزداد إدراكنا لها ، ونشعر كأنها تنبع من داخلنا نحن ، لا من داخل الشعراء . فالتلال والجبال والبحار والرياض والسحاب والنجوم وكل ما فوقنا فى السماء وتحتنا فى الأرض تحوّله ملكة الشاعر الخيالية إلى صور حية ، إذ تزيح الستار المادى عنه ، وتكشف عن روحه وما يكمن وراء ظاهره ، فإذا كل ما نبصره جامداً أو ساكناً يتحرك بنفس إحساساتنا ومشاعرنا ، وكأن الشاعر يفرض عليه حياتنا الإنسانية فرضاً .

وهذا النزوع التصويرى عند الشعراء يختلف فى الأمم باختلاف ملكاتها ، ومن المحقق أن اليونان بثوا فى الطبيعة من حولهم قُوى كثيرة غير منظورة ، من آلهة وغير آلهة . ولذلك كانت المادة التصويرية تغلب على شعرهم ، كما تغلب على شعر ورثتهم من الغربيين ، وهم فى ذلك يتفوقون جميعاً علينا وعلى أسلافنا من العرب . وقد يرجع هذا عندنا إلى وراثتنا القديمة ، وأننا لم نرث عن عرب الجاهلية ثروة تصويرية ضخمة ، تتحرك أثناءها الطبيعة حركة كبيرة ، بقوة كامنة فيها مستورة .

وربما كان مرد هذا عند العرب أنهم عاشوا فى طبيعة هادئة معتدلة

ليس فيها صراع عنيف بين الإنسان وما حوله فى الكون ، فالحياة تجرى فى حركة رتيبة ، وليس فيها مخاوف إلا قليلا . أما الأوربيون فقد أحسوا بصراع هائل بينهم وبين الطبيعة ، وخالوا أنها تزخر بأعداء لهم على كل لون ، وأن أطيافاً هائمة تحيط بهم صباح مساء .

ولم يشعر العربى فى صحرائه الحارة بشىء من ذلك شعوراً واضحاً إلا نادراً ، إنما شعر بنفسه ، ودار حولها ، وأصبحت قطب حياته ومحورها ، ولذلك كان شعره كله تعبيراً عنها لا عما حوله . حقًّا قد يصف الحيوان، وقد يصف الطبيعة الساكنة ، ولكن ذلك جميعه يستمر عنده بصورته الحقيقية، وكأنه لم يشعر بانفصال عنه ، فهو وما حوله يكونان عالماً واحداً ، وهو جزء من هذا العالم لا يستقل عنه ، بعكس اليونانى القديم الذى يشعر بانفصاله عما حوله ، وأن له عالمه؛ ولما حوله عالمه المستقل الذى يضغط على عالمه الإنسانى وكل ما فيه .

ومن هنا اختلف جوهر الشعر عند الأمين عند من حملوا ترائهما ، فبينما يغلب التصوير على مادة الشعر عند الغربيين تغلب الموسيقى على مادته عندنا، وتصبح فى أكثر الأحوال أهم محتوياته ومكوِّناته . ولا يعنى هذا بحال أن الشعر العربى يخلو من التصوير ، فالتصوير يجرى فيه ، ولكن بدون جلبة ، وبدون القوة التى نجدها فى الشعر الغربى قديمه وحديثه وهل يستطيع أحد أن ينكر على امرئ القيس وغيره من شعراء الجاهلية ما استخدموه فى شعرهم من لغة تصويرية ؟ لقد استخدموا المجازات والتشبيهات بكثرة ، ولكنهم لم يتسعوا بها ، بل بقيت أشبه ما تكون بزخرف خارجى يلحق القصيدة ، واستقر ذلك فى نفوس من جاءوا بعدهم ، فلم يتحولوا إلى إبراز الروح المستكنة حولهم فى الطبيعة ورفع النقاب المادى عنها بل ظلوا يستخدمون تلك الصور الجزئية من التشبيهات والاستعارات ، وقلما استحدثوا صورة كبيرة . ونفس هذه الصور الجزئية أدخلوها فى النسيج العام لقصائدهم على الطريقة الجاهلية ، فهى ألوان وخيوط فرعية تتداخل فى النسيج ليزدان بها ولا تستقل بنفسها ، ولا تحدث بناء خياليًّا كبيراً خالصاً لها .

وعلى طول المسافات المتباعدة التى قطعها العرب ونشروا فيها لغتهم تجد هذه الظاهرة ماثلة فى كل مكان . وقد نجد بعض الأزهار ذات الشذى الجميل فى العراق أو فى الشام أو فى مصر أو فى الأندلس ، ولكن إذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تستمد ماء حياتها من الصحراء العربية . ومن غير شك كانت تظهر بعض البراعات الممتازة ، وخاصة بين الأجانب ممن لم تمت فيهم سلائقهم الموروثة ، ولكنهم كانوا يعدون شذوذا على الذوق العام المألوف . وخير من يمثل هذا الشذوذ شاعران عباسيان هما : أبو تمام وابن الرومى ، ولا نزاع فى أن ثانيهما رومى الأصل ، أما الأول فاختلف فيه الرواة ، فمن قائل إنه عربى ومن قائل إنه أجنبى الأصل ، وهو قول غير صحيح والصحيح أنه عربى طائى ، ونحن لا نقرأ فى شعره حتى نؤمن بأنه نتوء فى تاريخ الشعر العربى ، إذ عدل به عن الأفلاك الواضحة التى يدو فيها إلى فلك غائم ، تصيح وتسبح فيه الأشباح . وتتحرك حركة واسعة لا مس حيث الطبيعة وحدها ، بل من حيث المعنويات أيضاً . فهى تتجسم وتتشخص ، وتظلل أطيافها كل شعره .

وطبعاً نفر الذوق العربى من هذا الشعر ، وتصدى له النقاد يشرّحونه ، ويقولون إنه خرج على عمود الشعر العربى وسننه المتبعة ، فضربوا لذلك المثال تلو المثال . والآمدى هو أكبر هؤلاء النقاد ، فقد ألف كتابه « الموازنة » ليوازن به بين شعر هذا الشاعر الشاذ وشعر البحترى الذى لزم عمود الشعر العربى ، وبنى شعره عليه . وكان أهم هدف وجه إليه ضرباته وسدد إليه قاذفاته هو « التصوير » إذ رأى الصور عنده غير متقاربة ، ورآه يكثر من التشخيص والتجسيم وتجسيد المعنويات ، فقال إنه ضل طريق الصواب ، إذ العرب « جرت على أن تستعير المعنى لما ليس له ، إذا كان يقاربه ، أو يدانيه ، أو يشبهه فى بعض أحواله ، أو كان سبباً من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له وملائمة لمعناه » ، فإذا لم يتبع ذلك شاعر فى دقة كان عمله شعوذة ، وكان خليقاً بأن نأخذ على يده .

وما يقوله الآمدى إنما يندمج فى هذا الإحساس الذى صورناه آنفاً ، وهو الإحساس بالحقائق كما هى ، بدون تبديل فيها وبدون أن تتدخل إرادة الشاعر تدخلا من شأنه أن يغيرها . وهكذا كان العرب ، كما قلنا ، فالحقائق تستمر كما هى تحت أعينهم . فلما جاء أبو تمام واستعان بإرادته الفنية ، وبث الحياة والحركة فى كل ما حوله من ماديات ومعنويات أحسوا أنه يتدخل فى الأشياء بأكثر مما ينبغى له . ونحن نضرب لذلك مثلا جاء فى قصيدة مدح بها قائداً من قواد العباسيين أبت له شجاعته إلا أن يحارب ثائراً خرج على الدولة فى أقصى الشمال . وكان الوقت شتاء والثلج والصقيع يتساقطان هناك . ويملآن القنوات والطرقات . ونصحه بعض خلصائه أن يؤخر غزوته حتى تخف حدة الزمهرير والجليد . فأبى ، واقتحم كل ذلك ، وانتصر على خصمه . فقال أبو تمام :

لقد انصعتَ والشتاءُ له وجهٌ ... يراه الرجالُ جَهْمًا قَطوبا
طاعنا مُنْحَرَ الشمال مُتيحاً ... لبلاد العدو موتاً جنوبا
فضربتَ الشتاء فى أخْدَعَيْه ... ضربة غادرته قَوْداً ركوبا
لو أصَخْنا من بعدها لسمعنا ... لقلوب الأيام منك وَجيبا

وحمل الآمدى على أبى تمام ، إذ وجده يصور الشتاء على هذا النحو ، فإذا وجهه جهم قطوب ، وإذا هو يشبه دابة شرسة ذللها القائد ، وأصبحت صاغرة بين يديه . وتوسع الآمدى فى هذه الحملة واجتلب أبياتاً كثيرة جسم فيها أبو تمام المعنويات ، وقال إن هذا كله لغو وفضول .

ولم يتنبه الآمدى إلى أن هذا مذهب جديد فى الشعر ، وأنه أولى به أن يصفق له استحساناً ، لا أن يزرى عليه استهجاناً ، ومع ذلك فإن أبا تمام حين جاء بهذا المذهب لم يهدم المذهب القديم فى التصوير ، بل استمر يزاوج بين المذهبين أو الطريقتين ، كما استمر يستمد من القديم ومن أوعيته فى اللغة والموسيقى ، فهو لم يكن ثائراً ثورة هدم ، وإنما كان شاعراً من طراز جديد ، يشخص المحسوس ويجسم المعقول ، ويحيل ذلك فى شعره رُؤًى حالمة .

وخلفه ابن الرومى ، فزاد فى الطنبور نغمات ، وملأ شعره بالأشباح والخيالات ، ولم يقع صنيعه هو الآخر من نفوس العرب ونقادهم موقعاً حسناً . وبذلك عادت آلة التصوير الشعرى سيرتها الأولى من السطحية ومن تمثل الحقائق الظاهرة ، بدون تعديل فى فيها ، يطلق القوى المتحركة فى داخلها ، ويحررها من عقال الغلاف الذى يسترها . وتألفت طبقات ودواوين كثيرة من الشعر ، ولكنها كلها طبقات ودواوين جامدة ، لا حياة فيها ، ولا روح ، ولا حركة إلا قليلا .

٢

وما زال هذا شأن شعرائنا حتى أطلّ علينا العصر الحديث ، واتصلنا بالغرب ، ونظمنا هذا الاتصال عن طريق البعوث وما استوردت من آدابه شعراً ونثراً . وحينئذ أخذت البحيرة الراكدة من أدبنا تتجدد ، فقد دخلت عليها أنهار متدفقة من الآداب الغربية .

ولم تلبث الحواجز بين أعمالنا الأدبية وأعمال القوم أن ذابت ، فإذا بنا ننشئ القصة كما ننشئ المقالة ، وإذا بشعرائنا يجددون فى موضوعات شعرهم وأساليبه ، وإذا هم يستعيرون كثيراً من الأخيلة الغربية ، وإذا هذه الفواصل بين طبيعة شعرنا وطبيعة الشعر الأوربى تتضاءل .

وكل ذلك طبيعى فإن شعراءنا ألموا بالآداب الغربية ، وترجموا كثيراً من فرائدها الشعرية ، وتحولوا إلى هذه الينابيع الجديدة ، يغسلون بها صدأ الزمن والبلى ، الذى رانَ على شعرهم . ولم نلبث أن رأينا سعة فى أخيلتهم ، وأن رأينا تجديداً واضحاً فى صورهم واستعاراتهم .

وقد أغرق شعراء المهاجَر الأمريكى وتوغلوا فى هذا الجانب ، وبذلك أحالوا غير قليل من شعرهم إلى ما يشبه النماذج الغربية فى رُؤاها وأطيافها ، وتبعهم كثير

من شعرائنا فى مصر ولبنان وغير مصر ولبنان . وبذلك أخذ هذا التعارض بين تصوير أسلافنا وتصوير الغربيين تخف حدّته فى هذا الشعر الحديث الذى ينتجه شعراؤنا ، وكأنهم أصبحوا غربيين ، فهم يفرضون إرادتهم الفنية على الطبيعة وعلى الأشياء المختلفة مادية أو معنوية ، وهم ينفخون فى كل ذلك روحا وحياة .

وعلى هذا النحو أخذ شعرنا يمتص القوى الخيالية المبتكرة التى أتته من الغرب ، وأخذت صوره تتجدد فى نطاق واسع . ومع ذلك فلا بد أن نعترف بأن بعض ما استورده شعراؤنا نبا عن أذواقنا ، وظهر أنه لا يلائم بيئتنا ، فهو غريب ، لا تصلح جذوره للامتداد فى بلادنا .

ولذلك كنا فى حاجة دائماً إلى طبقة من الخبراء فى الشعر، تنقل إلينا، ولكن تتحرى فيما تنقل أن يكون صالحاً لنا ، متسقاً مع نزعاتنا ، إذ ليس كل ما لدى القوم من طعام يصلح لنا ، بل إن بعض طعامهم لا تستطيع معدتنا الشرقية أن تهضمه .

وأظن أن هذا هو ما يجعل شعر نفر من المجددين الذين يعتمدون على الاستعارة من الغرب بعيداً عن روحنا ، إذ يفقد الحس الذى ينبغى أن ينفذ به إلى داخلنا . ونحن لا ننكر أن من شعرائنا من وُفّقوا لا فى نقل الصور الغربية فحسب ، بل أيضاً فى الابتكار وإحداث نماذج فنية قيمة ، فقد دارت آلة التصوير العربية وأخذت تخرج عند بعض شعرائنا أمثلة رفيعة من الفن والوهم والحلم الخالص .

وما أرتاب فى أن أبا ريشة أحد شعرائنا المعاصرين الذين استطاعوا أن يديروا هذه الآلة إدارة حسنة ، فإذا شعره مجاميع من أطياف وأشباح، وكأنما له من اسمه حظ، فهو يرسم بريشته لوحات كبيرة ، تلمع فيها خطوط الاستعارات وألوانها وظلالها ، وكأن روح أبى تمام القديمة بعثت ثانية فيه ، وهى لم تبعث وحدها ، بل بعثت أيضاً روح ابن الرومى، وأضاءت على الروحين أقباس غربية، ومن شعر المهاجر الأمريكى. ولعل ذلك ما يجعل ديوانه

متعة حقيقية ، بما يصوغ فيه من مشاعر وتأملات ، فالشعر عنده ليس صوراً فارغة ، وإنما هو صور مليئة بالأفراح والأحزان ، مع الإحساس الدافق بالعروبة والإسلام .

فهو ليس من هؤلاء الشعراء الذين ينطوون على أنفسهم وأحلامهم مبتعدين عن شعوبهم وتاريخها وطموحها وآلامها وما يصهرها من أزمات ، بل هو ممن يندمجون فى محيطهم وأممهم ، يحملون تاريخها وآمالها وكل ما تسعى إليه من خير ومجد فى صدورهم ، ولا يلبثون أن يذيعوه فى شكل تعاويذ ، يريدون أن يَرْقوا بها أمّتهم ، ويبعثوا فيها روحاً من عند الله وحياة قوية شامخة كالأطواد .

فصور أبى ريشة ليست واهمة ولا هائمة تجرى فى خلاء أو فراغ ، وإنما هى صور حية معبرة ، لها دلالة وفحوى ، واسمعه يقول :

أنا من أمة أفاقتْ على العزّ وأغفت مغموسةً فى الهوان
عرشها الرثُّ من جراد المغيريـــــن وأعلامها من الأكفان

وهو يعبر فى هذين البيتين عن بؤس بلاده فى أثناء الاحتلال الفرنسى ، ويصور هذا البؤس فى ثورة بشعة تستفز النفوس ، وتدفعها إلى العمل على الخلاص من نير هذا الأجنبى . وقد تحقق لوطنه ما أمّله وحلم به .

والبيتان من قصيدة أشاد فيها بخالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وفاتح فارس والشام ، وصاحب وقعة اليرموك المشهورة التى لم تقم للروم حينئذ بعدها قائمة ، وقد مرت هذه الوقعة فى مخيلة أبى ريشة على هذه الشاكلة :

فأتاهم بحفنةٍ من رجال عندها المجدُ والرَّدَى سيّان
ورماهم بهـــا وما هى إلا جولةٌ فالتراب أحمرُ قان
وضلوعُ اليرموك تجرى نعوشاً حاملات هوامدَ الأبدان

والصورة فى البيت الأخير رائعة . وقد كان يعرف دائمًا كيف يجسد الصورة ، ويجسمها ، على نحو ما نرى فى قوله :

أرى بين جفنيك جِسْر الدموع تسير عليه طيوفُ الألم
أتخشينى؟ إنّ أمسى انطوى فلا تنشريه خضيب الذمم
ولا تتركينى على صبوتى طليقَ الأمانى كسيحَ القدم

وفى كل جانب من جوانب الديوان نجد هذا التصوير البارع بحيث نستطيع أن نقول إن التصوير أساس فنه ، وهو تصوير يد صناع ، تعرف كيف تضم الخط إلى الخط واللون إلى اللون والضوء إلى الضوء والظل إلى الظل، فلا نحس نشازاً ، بل نحس استواء وائتلافاً .

٣

وليست اللغة التصويرية هى كل ما نلاحظه فى شعر أبى ريشة ، بل نحن نلاحظ أيضاً أنه يعرف كيف يحيل الحقائق التاريخية إلى صور مثيرة ، يؤثر بها فى عواطفنا ومشاعرنا إذ يعرف كيف يجوب التاريخ ، كما يعرف كيف يجوب حقائق عصره . وارجع إلى رثائه لأحد المجاهدين الأحرار فى بلده « حلب » وهو « إبراهيم هنانو » فستراه يذكر التاريخ القديم لوطنه وأمجاد العرب فيه ، وكأنه يريد أن يَشعر أمته حماسةً ويشعلها ثورة . ويلتفت إلى مأساة العرب واليهود فى فلسطين ، ولم تكن الحرب قد نشبت بينهما . ومع ذلك نراه يقول :

والقدسُ ما للقدس يخترق الدّما وشراعه الآثامُ والأوزارُ
أىُّ العصور َهوَى عليه وليس فى جنبيه من أنيابه آثارُ
عهدُ الصليبيين لم يبرح له فى مسمع الدنيا صَدًى دوّارُ

صفَّ الملوك فما استباح إباؤهم ... شرفَ القتال ولا أهين جِوارُ
ناموا على الحلم الأبيّ فنفّرت ... منه الطيوفَ بنوّةٌ فُجّارُ
صلبوا على جشع الحياة وفاءهم ... ومشوا على أخشابه وأغاروا
ولكل كفٍ غضةٍ سكينةٌ ... ولكل عرق نابض مسمارُ
مدُّوا الأكف إلى شراذم أمةٍ ... ضَجت بِنَتْنِ جسومها الأمصار
ورموا بها البلد الحرام كما رمتْ ... بالجيفة الشطَّ الحرامَ بحارُ

فالقدس هذه السفينة المحمومة التى تخترق بحار الدماء ، يقطر تاريخها كله بالدم والوزر ، وما عهد الصليبيين ببعيد ، هذا العهد الذى ألقى فيه العرب دروساً على الغرب لا تنسى فى الكرامة والشجاعة والإباء والوفاء . أما اليوم فقد أهدى الغرب البلدَ الحرام إلى اليهود ، فلم يوفوا بعهد من العهود ، بل نكثوا كل عهد ، ونقضوا كل وعد ، ومن غير شك وفق أبو ريشة فى عرض هذه الأفكار عرضاً تصويرياً بديعاً ، وقد استغل التاريخ ، فاليهود صلبوا عيسى قديما ، وهم يصلبون اليوم وفاءهم . وأكمل الصورة بذكر الخشب والسكينة والمسمار والكف والعرق ، حتى تتم صورة الصلب . وما زال بهم حتى جعلهم كومة من الأجساد البالية ، بل من الجيف المتآكلة .

ونحن نعرض منظراً آخر من قصيدته «محمد» صلى الله عليه وسلم وفيه يتحدث عن « وقعة بدر » ومكانتها فى الإسلام وعند المسلمين ، يقول :

وقف الحق وقفةً عند بَدْر ... شحذتْ فى الغيوب سيفَ القضاء
ووراء التلال ركبُ أبى سف ... يان يحمى سريّة الفيحاء
وقريشٌ فى جيشها اللجب تسعى ... بين وَهْج القنا وزَهْو الحداء
بلغتْ منحنى القليب ولفّتْ ... مَنْ عليه ببسمة استهزاء
وأرادت أكفاءها فتلقّا ... ها علىٌّ ذؤابةُ الأكفاء
جزَّ بالسيف عنق شيبة وارتـ ... ـدّ إلى صحبه خضيبَ الرداء

فطغى الهول والتّقى الند بالند ... وماجا فى لجة هوجاء
وعيونُ النبىّ شاخصةٌ تر ... قص فى هُدْبها طيوفُ الرجاء
ودنتْ منه عصبة الإثم والمو ... ت على راحها ذبيح عياء
فرماها بحفنةٍ من رمال ... ورنا ثائر المنى للعلاء
ودعا : « شاهت الوجوه » فيا أرْ ... ض اقشعرّى على اختلاج الدعاء
قضىَ الأمر يا قريشُ فسيرى ... للحمى واندبى على الأشلاء
واحذرى الطيّب أن يمس غلاماً ... فى ندىٍّ أو غادةً فى خباء
يومُ بدْرٍ يومٌ أغرُّ على الأيـ ... ـام باق إن شئتِ أو لم تشائى
ركز اللهُ فيه أسمى لواءٍ ... وجثا الخلدُ تحت ذاك اللواء

وأنت تراه قد ألم بالموقعة ، وكأنه يسقط هنا وهناك ، يلتقط خبراً يلون به أجنحته . وهو طائر رشيق ، لا يستحضر من الأخبار إلا أطرفها وأروعها . وبذلك لا يجلب شريطُ الموقعة كلَّ ما كان فيها على نحو ما مر بنا عند « محرم » فى وصفه لنفس الموقعة ، وإنما يختار وينتخب فى خفة ، وبيد يقظة ، ولا يلبث أن يوشح ما يختار وينتخب بالصور والاستعارات ، فيلمع الشعر ، واسمعه يقول فى نهاية هذه القصيدة :

يا عروس الصحراء ما نَبَتَ المجـ ... ـدُ على غير راحة الصحراء
كلما أغرقتْ لياليها فى الـ ... ـصمت قامتْ عن نبأةٍ زهراء
وروتها على الوجود كتاباً ... ذا مضاءٍ أو صارما ذا مضاء
فأعيدى مجد العروبة واسقى ... من سناه محاجر الغبراء
قد تَرِفُّ الحياة بعد ذبولٍ ... ويلين الزمان بعد جفاء

فإنك تحس أن الشعر ليس فراغاً يُملأ بألفاظ ، وإنما هو مشاعر وأحاسيس وحياة لجبة صاخبة فيها قوة مثيرة ، وكأنه مجداف أهدته الطبيعة

إلى سوريا ليحرك سفينتها ، ويقودها فى محنتها ، حين كانت تغوص أقدامها فى ذل الاستعمار الفرنسى . وقد ذهب يتغنى فى ضجر وحدّة بكبريائه ، وأن قناته لن تخضد شوكتها الأحداث ، وأن الزمن مهما عصف به لن يلين . وهو دائم التصوير لذلك ، تارة ينظم فيه البيت ، وتارة يُشيعه فى قصيدة أو صورة كبيرة ، ولعل خير ما يوضح هذا الجانب عنده قصيدته « نسر » وفيها يصور نسراً هبط من عشه فى القمة إلى السفح ، إذ أحس دبيب الموت ، فسقط يترنح ، فتجمعت بغاث الطير تشمت به ، فانتفض لكرامته ، وارتفع إلى وكره فوق الصخرة ، حتى لا يموت على سطح بال وضيع ، يقول :

أصبح السفحُ ملعباً للنسور ... فاغضبى ياذُرَى الجبال وثوري
إن للجرح صيحةً فابعثيها ... فى سماع الدنى فحيحَ سعير
واطرحى الكبرياء شِلْواً مدمىً ... تحت أقدام دهرك السكّير
لملمى يا ذرى الجبال بقايا النَّسْر وارمى بها صدور العصور
إنه لم يعد يكحّل جفن النجم تيهاً بريشه المنثور
هجر الوكر ذاهلا وعلى عيـ ... ـنيه شىء من الوادع الأخير
هبط السفحَ طاوياً من جناحيه على كل مطمح مقبور
فتبارتْ عصائبُ الطير ما بين شرود من الأذى ونفور
لا تطيرى جَوَّابة السفح فالنسرُ إذا ما خبرتِه لم تطيرى
نسَل الوهنُ مخلبيه وأدمتْ ... منكبيه عواصفُ المقدور
والوقار الذى يشيع عليه ... فضلة الإرث من سحيق الدهور
وقف النسرُ جائعاً يتلوّى ... فوق شلو على الرمال نثير
وعِجاف البُغاث تدفعه بالمخلب الغض والجناح القصير
فسرتْ فيه رعشةٌ من جنون الكِبْرِ واهتزّ هزة المقرور
ومضى ساحباً على الأفق الأغْبر أنقاض هيكل منخور

وإذا ما أتى الغياهب واجتا ... ز مدى الظن فى ضمير الأثير
جلجلتْ منه زعقةٌ نشّتِ الآ ... فاق حرى من وهجها المستطير
وهوى جُثّة على النروة الشمّـ ... ـاء فى حضن وكره المهجور
أيها النسرُ هل أعود كما عُد ... ت أم السفحُ قد أمات شعورى؟

وواضح أن هذا الشعر لا يثير فقط ، بل يوجه ، ويملأ النفس ضجيجاً وقوة، وكأنه صرخة من أعماق الشاعر . وربما كان ذلك فى الواقع ما يجعلنا نقدره، ونعجب به وبشعره، فهو يصيح بالحرية وبالطموح والمطالب الإنسانية السامية . وفيه نفس القلق الذى كان يساورنا فى حياتنا وما نقاسيه فيها من آلام وآمال ممزقة، وكم كنا نجرى فيها فنحس كأنما سقطنا من قمم خيالنا إلى سفح الحقيقة العارى، هذا السفح الملطخ بأشواك المستعمرين وحرابهم . وشىء من ذلك لا يفضى بأبى ريشة إلى التشاؤم القاتم ، فهو لا يزدرى الحياة ولا يفر منها كما فر أبو العـــلاء . هو جزع ضجر ، ولكنه ثائر نافر ، يريد أن يتناول كئوسها رحيقاً مصفى ، فنفسه تسع الألم ولا تنوء بجرحه ، بل إنه يجد فى أغوار هذا الجرح جمالا ، وهو جمال لا يجده فى شىء من البذخ والترف، وإنما يجده فى المقاومة ، حتى فى ساعة النزع والذبح .

ولعل فيما قدمناه ما يدل دلالة بينة على قوة ملكة التصوير عند هذا الشاعر ، فهو لا يستطيع أن ينظم دون أن يحشد الأطياف والأشباح فى شعره ، وهو يعرضها بمناظرها ومفاجآتها المخيفة . وكما نحس بغرابة الصور فى بعض مناظر الخيالة نحس أيضاً عنده نفس الإحساس ، إذ يعرف معرفة دقيقة كيف يباغتنا بالأشباح المثيرة ، واسمعه يقول فى طلل رومانى مرّ به :

رمالٌ وأنقاضُ صرحٍ هوتْ ... أعاليه تبحث عن أسّه
أأستنطق الصخر عن ناحتيه ... وأستنهض الميت من رمسه
حوافرُ خيل الزمان المشتّ ... تكاد تحدث عن بؤسه
وتلك العناكبُ مذعورة ... تريد التفلت من حبسه

والمفاجاة واضحة فى الأبيات : الأول والثالث والرابع ، وهى التى تجعلنا نزعم أن ذوقه يقرب من ذوق أبى تمام وابن الرومى ، بل من ذوق الغربيين وبعض شعراء المهاجَر الأمريكى ، إذ ما تزال تلح علينا فى شعرهم جميعاً الأشباح والأطياف المباغتة . وهى عندهم نتيجة الإحساس بضغط العالم الخارجى كما قلنا فى صدر هذا الحديث ، وكأن أبا ريشة يحس إحساسهم ، أو قل كأن ثقافته بشاعرينا القديمين والشعر الحديث هى التى أملت عليه هذا الإحساس ، فإذا شعره يصبح مسرحاً لأطياف العالم الخارجى وأشباحه ، وإذا هذه الأطياف والأشباح تملأ نفسه من جميع أقطارها . واسمعه يصور « مصرع الفنان » فى بلادنا :

ملَّ دنياه بعد ما سئمَ السـ ـير عليها وضاق فى بلوائهْ
موردُ الفن مظلم لم يصوِّب فوقه الشرقُ مشعلا من ضيائه
سار فيه وظلمةُ اليأس تطفى تحت أنفاسها شموع رجائهْ
والصخور الجسام ناتئة الأنيـ ـاب تدمى أقدامه وهو تائه
ورءوس الأشواك ترتدّ عنه وعليها ممزَّقٌ من ردائه
والأفاعى تفحّ من كل صوب نازعات إلى امتصاص دمائه
والأمانى أمام عينيه أطيا فُ سرابٍ تموج فى بَيْدائه
فحنى رأسه الكئيب وألقى بعصاه وضجَّ فى بأسائه
وانثنى عائداً يشيِّع حلمـاً يتلاشى من مقلتىْ نعمـائه
عودة الثاكل الحزين وقد نفـ ـض كفيه من ثرى أبنائه

وهذه قطعة من القصيدة ، وهى طويلة ، والصور تمتد على نسيجها ، ممثلة هذا الجهاد أو العراك بين الفنان والحياة من حوله ، وكأنه يحمل صخرة يريد أن يرفعها إلى قمة شاهقة ، فهوى هو وصخرته إلى الحضيض ، ويعود إلى رفعها من جديد . ولا ييأس الشاعر ، بل يذهب إلى الحانة الحمراء يعبّ

منها ومن رِجْسها وإثمها ، حتى يزيح عن صدره كابوس آلامه وحرمانه . وتطوف به آماله الغرُّ ، حاملة له فى يديها أكاليل فوزه ونجاحه . ويأسى أبو ريشة لشاعرنا الصريع ، إذ يجده بائساً شقيًّا فى بلاده ، بينما يسعد فيها الأجنبى الغريب وينعم :

أهملتْ شأنه البلادُ وصمَّتْ ... أذنيها عن دمدمات فؤادهْ
فتحتْ صدرها لكل دخيل ... فاغر الشّدق واثب فى عناده
وسقتْه كأسَ الهناء دِهاقًا ... وفتى الفن ظامىءٌ فى بلاده
لم يكن ذاك عن ذهولٍ ولكن ... يرغب الهرُّ فى دما أولاده

وعلى هذه الشاكلة ما نزال نرى مشاهد رائعة عند هذا الشاعر الذى تشبه قصائده الطويلة أدق الشبه السياحات الكبيرة ، ونقصد سياحات الخيال ، وهى سياحات تملؤنا بالمتعة ، تملأ نفوسنا وقلوبنا ، وتدفعنا إلى أن نقرأ فيه ، لأننا نجد فيه غذاء فنيًّا ، لا نلبث حين نقرؤه أن نتمثله ، وأن نشعر بأنه يضيف إلينا ثروة جديدة ، لا ثروة خيالية فحسب ، بل أيضاً ثروة نفسية ، فهو يقوى من عزائمنا ويشدّ من إرادتنا .

ولقد حاولت أن أعرض بعض صوره ، وهى ليست خير ما فى ديوانه ، فوراءها صور كثيرة لا تقل جمالا ولا إبداعاً عنها ، إذ نفض الأشباح والأطياف على كل ما دار فى عقله وقلبه ، فإذا شعره يموج بها موجاً . ولعل هذه الأمواج التصويرية لم تتجمع وتتركز على شاطئ فى شعره كما تجمعت وتركزت فى قصيدته « شاعر وشاعر » ، وهى قصيدة ألقيت فى الجامعة السورية بدمشق فى المهرجان الألفى لأبى الطيب المتنبى ، وفيها يستعرض صور الوجود فى الصباح والمساء ، فصورة الفجر والكونُ يرتدى بُرْدة الجمال ، تقابلها صورة الهاجرة وهى تصب السأم والصمت فى فم الغبراء ، ثم يكون المساء فيصوره بتلك الصورة الناطقة :

مأتم الشمس ضجَّ فى كبد الأفـ ... ـق وأهوى بطعنـةٍ نجـلاء
عصبت أرؤسَ الرَّوابى الحزانى ... بعصابٍ من جامدات الدماء
فأطلتْ من خدْرها غادةُ الليـ ... ـل وتاهت فى ميسة الخيلاء
وأكبَّتْ تحل ذاك العصاب الأرجـ ... ـوانىَّ باليـد السـمراء
وذؤاباتُ شعرها تترامى ... فى فسيح الآفاق والأجواء
وعيونُ السماء ترنو إليها ... من شقوق الملاءة السوداء
فإذا الكون لجةٌ من جلال ... فجرتها أناملُ الظلمـاء
يرسبُ الطرْفُ فى مداها ويطفو ... ثم يرتدُّ فاقـد الإرتواء
فتُطلّ الأشباح من كُوَّة الوهـ ... ـم وتعوى مجنونة فى العراء
وتموج الأصداء من زفرة الأر ... ض بأذْن المهـابة الصمّاء
صورٌ أفرغت على أذُن الشا ... عر نجوى علويَّة الإيحـاء

وما أشك فى روعة هذه الصورة التى صور فيها أبو ريشة الطبيعة ، وهى تودع الشمس وداع الغروب ، وإنه ليعرض علينا حمرة الشفق وقد علت رءوس الروابى ، وظلمة الليل وهى تفض هذه الحمرة ، وقد ظهرت النجوم ، أو كما يسميها عيون السماء . كل ذلك يعرضه علينا والأشباح تطل علينا وعليه من كوة الوهم ونافذة الخيال الحالم ، ولا يلبث أن يقول :

هكذا استعرض الوجود مليًّا ... فى غضون الإصباح والإمساء
فانثنى ضارباً على الوتر الشـا ... دى أهازيجَ روحه الشمّاء
فضَّ فيها عن الحياة نقابا ... من خداعٍ وبرقعاً من رياء
ورمى ختْمَ سرِّها فتجلتْ ... بعد لأى عريانةً للـرائى
فتهادتْ بناتهـا باصطفاق الـ ... ـصَّنْج والدفِّ واتساق الغنـاء
كدُمى هيكلٍ لقد نفض اللـ ... ـهُ عليها اختلاجةَ الأحياء

يتمايلن راقصـــات نشاوَى بدلال مفجـــر الإغـــراء
فن الخَصْرِ عطفةٌ تركتْ فى حلمة النهْد نَفرةً للعـــلاء
كل بنتٍ جياشة الصَّدْرِ ترمى أختها بابتســـامة استهزاء
زُمَرٌ من كواعبٍ برزت فى صُور العيش فى أتم جـــلاء

أرأيت كيف صور خطراته وبنات شعره ؟ إننا لنتذكر توًّا ابن الرومى حين جسَّم هنوات صاحبه القاسم بن عبيد الله ، ورآها فعلا أطيافًا تحيط به ، فخاطبها ، وحاورها حواره المشهور[1] . وأنت لا تحس فى هذه الصور جميعاً شيئاً من التخبط ولا من التناقض بين ظاهرها وباطنها أو بينها وبين مدلولها . ولعل فيما لاحظناه من استيحائه فى هذه الأبيات الأخيرة من عمل ابن الرومى ما يدل على حقيقة مهمة عنده ، وهى أن شعره يتصل مباشرة بعناصر شعرنا القديمة ورواسبه ، فهو قد تثقف به ثقافة واسعة ، ولذلك كان شعره قريباً منا . ومن الغريب حقًّا مع هذه السعة فى التصوير أن اللفظ قلما يسقط عنده ، فهو ينظم فى لغة رصينة جزلة ، وقد ترقّ فتعذب ، ولكنها لا تسف ولا تهبط ، فهو على حد قوله فى القصيدة الآنفة :

بدوىٌّ لينُ الحضارة فى بُرْ ديه ناجَى خشـــونةَ البيداءِ

وحقًّا إن البداوة تغذى شعره بخير ما فيها من نقاء وصفاء ، وكم يذكر الرمال والصحراء وأخلاق البدو الكريمة ! . ومعنى ذلك أن البداوة تزدوج فى روحه مع الحضارة كما يزدوج العالم الداخلى والعالم الخارجى فى لوامع أشباحه .

---

(١) انظر : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى الطبعة العاشرة ص ٢١١ .